

مجلة
جامعة أم القرى
للبحوث العلمية المحكمة

العدد الخامس عشر

السنة العاشرة ، ١٤١٧ هـ (١٩٩٧م)

رقم الإيداع ٣٣٠٣ وتاريخ ١٢ / ١١ / ١٤١٥ هـ الرقم الدولي المعياري للدوريات ردمد : ١٣١٩ - ٤٢١٦ ISSN



الصراع بين أبناء يوسف الأول وأثره في إضعاف مملكة غرناطة

د/نورة بنت محمد بن عبد العزيز التويجري
رئيس قسم التاريخ والحضارة بكلية التربية للبنات بالرياض

ملخص البحث

كان للثورات والفتن والقلاقل التي قامت في الدولة الإسلامية بالأندلس أثرها الواضح في نهاية تلك الدولة الإسلامية العظيمة التي ظلت ثمانية قرون (٩٢-٨٩٧هـ/٧١١-١٤٩٢م) تصارع القوى المسيحية المتربصة بها في الشمال خلف جبال البرانس فضلاً عن القوى المسيحية الداخلية .

كان المحرك الفعلي لهذه الثورات يختلف باختلاف الأسباب المؤدية له فأحيانا كانت الثورات تنبعث من الرغبة في الاستيلاء على السلطة في البلاد من قبل بعض الأمراء الطامحين الذين لم يكن أكثرهم يتواني عن إشعال الثورة بغرض الوصول لمآرب شخصية ، بل وفي بعض الأحيان كان المحرك للثورة نوعاً من الجشع والطمع والتنافس في سبيل الوصول للمناصب العليا في الدولة من بعض وزرائها وكبار رجالها .

ولعل تلك الثورة التي نتصدى لدراستها في بحثنا هذا تعطي مثالاً واضحاً لما مرت به الدولة الإسلامية في الأندلس إبان العصر الأخير من حكمها حيث استعرت الفتن والثورات التي هيأت الفرص الذهبية لأعداء الإسلام والأندلس لينفذوا - مستغلين هذه الأوضاع القلقة — إلى أهدافهم المتمثلة في إلغاء الوجود الإسلامي في الأندلس ، عامدين الى التدخل في الشئون الداخلية وإشعال نار الفرقة بين الزعماء المسلمين ، مما أدى - في النهاية - إلى انهيار الأندلس بعد أن عاشت قروناً طويلة تقاوم الطامعين وتحول دون الوصول إلى هذا المصير .

مقدمة

حدثت هذه الثورة في الدولة النصرية التي أسسها محمد بن الأحمر زعيم بني نصر القحطاني في بداية القرن الثالث الهجري (منتصف القرن السابع الميلادي) بعد سقوط دولة الموحدين التي كانت تحكم المغرب والأندلس .

وقد استمر أخلاف محمد بن الأحمر يتوارثون حكم غرناطة حتى سقطت في أيدي النصارى سنة (٨٩٧هـ/١٤٩٢م) فسقطت بسقوطهم آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس . وكانت دولتهم في غرناطة وما حولها تسمى بالدولة النصرية أو دولة بني الأحمر . وكان مؤسس دولتهم قد تلقب بلقب ((أميرالمسلمين)) ، فظل هذا اللقب يطلق على سلاطين غرناطة حتى سقوطها ، وكان ملوك بني نصر متمسكين بمبدأ الحكم المطلق .

كان أبو الحجاج الأمير يوسف بن إسماعيل بن فرج الذي يعرف باسم يوسف الأول من أبرز أمراء دولة بني الأحمر . وقد تولى الحكم بعد أخيه محمد يوم الأربعاء الثالث عشر من ذي الحجة عام ٧٣٤هـ (١٣٣٤م) فقام بأعباء الدولة أحسن قيام وقتل في السجدة الأخيرة من صلاة عيد الفطر من عام ٧٥٥هـ (١٣٥٥م) قتله رجل ممرور (١) .

وكان يوسف قد تزوج امرأتين من جواريه هما بثينة ومريم . وقد أنجب من بثينة

(١) انظر الملحمة البدرية : ص ١٠٢ وما بعدها ،والإحاطة ٣٣٣/٤. ويذكر ابن خلدون أن الذي قتله عبد من عبيد اصطبله مصاب في عقله وذكر أنه ينسب إلى أخيه محمد (العبر :٣٦٠/٧،٤٤٣) .

محمداً وعيشة وأنجب من مريم إسماعيل وقيساً وعدداً من البنات (١) .

وقد تزوج يوسف إحدى بناته من مريم إلى أحد أفراد أسرة بني نصر وهو أبو عبد الله بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر الملقب بالرئيس أحياناً والذي تسميه المصادر الأسبانية البرميخو (BERMEJO) ، وهذه الكلمة في الاسبانية تعني اللون البرتقالي المائل للحمرة وذلك بسبب لون شعره ولحيته (٢) . وسنرى أنه كان لهذه الظاهرة دور فعال في الثورة علي محمد بن يوسف .

المصادر :

المصادر التي بين أيدينا والتي لها علاقة بموضوع البحث هي :

كتب لسان الدين بن الخطيب (٣) وهذه هي الإحاطة ونفاضة الجراب واللمحة البدرية وأعمال الأعمال . ويعتبر ما كتبه هذا المؤرخ أهم ما كتب في موضوعنا على الإطلاق وأكثره تفصيلاً . وهو يورد ذكر هذه الفتنة في عدة أماكن من الكتاب

(١) انظر مقال (فترة مضطربة في تاريخ غرناطة) لمختار العبادي ص ٤٤ ، نقلاً عن : (E. Lafuente Y Aica'ntara: Inscripciones a'rabes de Granaba) وقد عدد علي بن عبد الله النباهي في كتابه نزهة البصائر والأبصار (ص ٦١ مخطوط) بنات يوسف من مريم فذكر أنهن : فاطمة ومومنة وخديجة وشمس وزينب .

(٢) المصدر السابق ،ص ٤٣ ،وانظر أعمال الأعمال :ص ٣٥٤ ، والإحاطة :٥٢٣/١.

(٣) هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني ذو الوزارتين في عهد محمد بن يوسف وصاحب المؤلفات التي تربو على خمسين مؤلفاً،ولد في ٧١٣/٧/٢٥ هـ (١٣١٣/١١/١٦م) وقتل في ربيع الأول أو ربيع الثاني سنة ٧٧٦هـ (أغسطس أو سبتمبر ١٣٧٤م) ـ لنظر في ترجمته مقدمة محمد عبد الله عنان لكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ص ١٧ وما بعدها .

الواحد بحسب المناسبة فضلاً عن إيراد وقائعها في كتبه هذه كلها . وهذه الكتب لا يغني بعضها عن بعض لمن أراد الوصول إلى تفاصيل الأسباب والمسببات والظروف المحيطة بالأحداث لأن في كل منها شيء يفيد في تركيب أسباب الثورة وأحداثها ، وهذا ما سيلمسه القارىء من الإحالات الى المصادر .

على أنه ينبغي التنبه إلى لزوم الاحتراس عند تناول أقوال ابن الخطيب في موضوعنا هذا بالنقل والنقد لأن شهادته لا تخلو من جرح بسبب كونه من ضحايا هذه الثورة والمتضررين منها الموتورين من أصحابها .

تاريخ ابن خلدون (١) (العبر) وهو معاصر لأحداث الثورة ولكنه بعيد عنها من حيث المكان . وقد كتب عنها بإيجاز وأورد بعض تفاصيل ينبغي أخذها في الأعتبار .

نزهة البصائر والأبصار لعلي بن عبد الله بن محمد الجذامي النباهي (٢) وهو معاصر للأحداث وكان قاضي الجماعة في دولة محمد بن يوسف . والكتاب الذي بين

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ الشهير ،أصله من إشبيليه وولد ونشأ بتونس وله رحلات إلى المشرق والأندلس . ولد عام ٧٣٢ه (١٣٣٢م) وتوفي عام ٨٠٨ ه (١٤٠٦م) وتوفي فجأة في القاهرة وأشهر كتبه كتاب العبر .

و في آخره ترجمة له تحت عنوان (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً) . وهي في آخر الجزء السابع من الكتاب .

(٢) كان النباهي قاضي الجماعة في غرناطة وكتب عنه ابن الخطيب ترجمتين إحداهما عندما كانت علاقتهما حسنة والأخرى بعد أن أظلم ما بينهما . انظر في ترجمته : نفح الطيب : ٢٦١/٨ ـ ٢٦٦ والإحاطة : ٨٨/٤ ـ ١٠٠ .

أيدينا مخطوط وفيه حديث طويل عن بني نصر أمراء غرناطة . إلا أن النباهي - مع أسفنا - لا يورد تفاصيل عن الفتنة التي ندرسها فقد ذكر تولي محمد بعد اغتيال أبيه يوسف ثم قال : (واستمرت على النهج القويم أيام ولايته ، ورعيته محوطة بجميل رعايته إلى أن جرى القدر ، وجاء بعد الصفو الكدر ، وذهب الإحلاء وخلفها الإمرار وتفريق شمل جماعته ، واستقراره بعد ذلك بالعدوة الغربية ، وتغلب صهره على ما كان لنظره من البلاد الأندلسية) (١) وقد أشار نا إلى ما أفدناه من الكتاب في مواضعه .

أقطاب الفتنة :

كانت هناك شخصيات رئيسة ثلاث يبدو أنها كانت تشكل هيئة التخطيط للثورة وتنفيذها وهذه الشخصيات هي : والدة إسماعيل مريم ، والرئيس محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل (البرميخو) ، وإسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج (أخو محمد) .

واستعانت هذه الهيئة بشخصيات أخرى في تجميع الأعوان وتنسيق تنفيذ خطة الانقلاب وأبرز هذه الشخصيات إبراهيم بن أبي الفتح والدليل المورروري ، ومحمد البطروجي ، وربما كان هناك أشخاص آخرون غير هؤلاء إلا أن المصادر لا تسعفنا بذكر سواهم .

أما والدة إسماعيل مريم فقد كان لديها من الأسباب ما يكفي لتشارك بفاعلية وحماس في الثورة على نحو ما سنذكر في حديثنا عن أسباب الثورة . ويبدو أن دورها

(١) اعتمدنا على مصورة مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض .

قد انصب على تمويل الثورة فقد كان لديها مال كثير استولت عليه بعد اغتيال زوجها يوسف من خزانته التي كانت في بيتها واستخدمت جزءاً منه في أغراض الانقلاب ، فقد كانت تمد به الشخصية الرئيسة في التخطيط ليصرفه في شئون الثورة (١) .

والشخصية الرئيسة في هيئة التخطيط للثورة هو الرئيس ابو عبد الله محمد بن اسماعيل بن فرج ، وهو ـ كما مر بنا صهر إسماعيل إذ زوجه يوسف من إحدى بناته من زوجته مريم . ويظهر من حديث ابن الخطيب عنه أنه كان شجاعاًجريئاًرغم ما يذكره عنه من سوء السيرة والفساد (٢) ، فقد قال عنه ـ فيما قال ـ إنه كان (هو ماهو من الإقدام ومداخلة ذؤبان الرجال) . وقد كانت لهذا الرجل أسبابه الخاصة في التصدي للتخطيط للثورة وقيادتها وهي أسباب سيرد ذكرها في حديثنا عن أسباب قيام الثورة .

وأما إسماعيل نفسه الذي قامت الدعوة إلى الثورة باسمه فلعله كان ضغيفاً قليل الحيلة بسبب الإقامة الجبرية المفروضة عليه من أخيه محمد ، ولكنه كان الرمز الواضح الذي اجتمعت عليه ألآراء في الظاهر رغم ما قد كان لدى صهره الرئيس محمد بن إسماعيل من نوايا خفية سنوردها لاحقاً .

وأما إبراهيم بن أبي الفتح والدليل المورري ومحمد البطروجي فلا تسعفنا

(١) انظر الإحاطة : ٣٩٨/١ ـ ٣٩٩ ، ٥٢٤ و ٢٦/٢ ،واللمحة : ١٢٠

(٢) انظر ترجمته في الإحاطة : ٥٢٣/١ وما بعدها ، واللمحة : ١٢٠ .

المصادر بمعلومات كافية عنهم إلا ما كان من ولاية إبراهيم على الشرطة العليا في عهد إسماعيل بن يوسف (١) وتولى المورووري الوزارة والحجابة لإسماعيل أيضاًوما آل إليه أمرهما بعد ذلك (٢) وأغلب الظن أنهما كانا من المغضوب عليهما في عهد محمد بن يوسف فربما كانا ممن أساءت إليه الدولة (بإقصار قصد ، أومطل وعد ، أو حط رتبة ، أو عزل عن ولاية) (٣) . وبروزهما في عهد إسماعيل يشير إلى أنه كان لهما دون مقدر لدى إسماعيل وصهره الرئيس محمد بن إسماعيل في المعاونة في تنفيذ الثورة ضد محمد بن يوسف . أما محمد البطروجي فقد كان معلماً لإسماعيل وأخيه قيس (٤) ، وقد هيأت له هذه الصلة بهما وبوالدتهما مريم ـ على الأرجح ـ القيام بدور ملحوظ في الفتنة ولعله كان إحدى قنوات الاتصال بين القصر والمتآمرين خارجه .

أسباب الثورة :

لم يذكر ابن الخطيب سبب الثورة على أهميته ، ولعله ترك ذلك قصداً لصلته الحميمة المعروفة بمحمد ، وكان علينا أن نبحث عن هذه المعلومة في مكان آخر ، ونتتبع الأخبار لاستنتاج أسباب الثورة .

وعلى الأرجح فإن الأسباب كانت متعدده ومنها :

(١) نفاضة الجراب :١٠٥ .

(٢) اللمحة :١٢٨ .والمورووري نسبة إلى كورة مورو (Moron) وهي متصلة بأحواز مدينة قرمونة من جزيرة الأندلس جنوب غرب مدينة قرطبة (الروض المعطار :٥٦٤) ،و (نفح الطيب :٣١٤/١ و٣١٥ و٢٤/٤) .

(٣) الإحاطة : ١ /٥٢٤ .

(٤) الإحاطة :١ / ٣٩٨ .

أولاً : نجد ابن خلدون يقول إن والد محمد وإسماعيل السلطان يوسف كان قد رشح إبنه إسماعيل لخلافته رغم أنه كان أصغر سناً من أخيه محمد وذلك بسبب أن إسماعيل وأمه كانا أقرب إلى نفس يوسف ، وفي هذا يقول ابن خلدون متحدثاً عن يوسف (وكان قد رشح إبنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محبته)(١) . فإن كان ما ذكره ابن خلدون صحيحاً فيبدو أن أغتيال يوسف المفاجيء لم يمهله حتى يتمكن من تثبيت أمر الولاية لابنه إسماعيل رغم أن أخاه محمداً كان أكبر منه سناً، ويعني كلام ابن خلدون من ناحية أخرى أن إسماعيل كان يشعر هو وأمه ومن شايعه أنه أحق بولاية الأمر من أخيه وأن في تولي أخيه الحكم حجب لهذا الحق ولذلك كان وقوع الترتيب للإحاطة بمحمد والاستيلاء على الحكم .

ورغم أن خبر ميل يوسف إلى تولية إبنه إسماعيل لم يرد إلا عند ابن خلدون وفي مكان واحد فإننا نميل الى قبوله لأسباب أهمها :

أ ـ أنه لم يرد من الأخبار ما ينفيه أو يشك في صحته .

ب ـ أن محمد بن يوسف كان على إدراك بما تطمح إليه نفس أخيه إسماعيل ، ولذلك فرض عليه الإقامة الجبرية مع والدته في بعض القصور السلطانية مكرمين ،إذ ليس هناك من مسوغ لهذا سوى ذلك الطموح .

جـ ـ نلمح من حديث ابن الخطيب عن تولية محمد الحكم بعد أبيه أن ابن الخطيب يبدو حريصاً على إبراز مرجحات اختيار محمد دون إسماعيل إذ نجده يقول عن محمد (ساق الله إليه الملك طواعية واختيار ، إثر صلاة عيد الفطر على بغتة وفاة المقدس

---

(١) العبر : ٧ /٣٦٣ .

أبيه ، من عام خمس وخمسين وسبعمائة ، لمخايل الخير ، ومزية السن ، ومظنة البركة) (١) ويقول في مكان آخر (ولي الملك يوم وفاة أبيه ضحوة عيد الفطر من عام خمسة وخمسين وسبعمائة إختياراً لمزية السن مظنة الحصافة) (٢) . ويقول عنه في مكان ثالث أنه (خيرتهم ولباب بيتهم ... وله مزية السن والرجاحة) (٣) . هذا مع ثنائه العريض على خصاله .وفي المقابل نرى ابن الخطيب يصف إسماعيل بصفة من ليس في شخصه أو تربيته أوأخلاقه ما يؤهله لتولي الحكم ،فهذا هو يقول عنه (كان صبياً كما اجتمع وجهه ، بادناً، دمث الخلق ، لين الجانب ، شديد البياض ،كثيف الحاشية متصلاً بالجفوة ، لطول الحجبة ، وبعد التمرن والحنكة غراً ، فاقداً لحسن الأدب عريقة ألفاظه في العجمة) (٤) .

د ـ إن في عبارات ابن الخطيب ما يشير إلى أن بيعة محمد جاءت باختيار الناس ولم تكن بترشيح من والده قبل وفاته ، فابن الخطيب يذكر عبارات (ساق ا لله إليه الملك طواعية واختياراً) و (ولي الأمر ...اختياراً) في النصوص التي أوردناها ويشفع بها ما يعتقد هو أنه كان سبب ذلك الاختيار من الصفات التي كانت تتوفر في محمد من مثل مزية السن ورجاحة العقل وغيرها .

---

(١) الإحاطة : ٢ /١٤ .
وأشار النباهي أيضاً إلى أن محمداً يكبر إسماعيل .
(نزهة البصائر والأبصار ((ص ٦١ مخطوط))) .
(٢) اللمحة : ص ١١٣ .
(٣) الإحاطة :١ ٣٩٨ .
(٤) الإحاطة : ١/ ٣٩٨ .

ثانياً : ما قد يكون في نفس الرئيس محمد بن إسماعيل من نقمة على محمد ، إذ بعد أن استتب الأمر لمحمد عمل على تغير سلطات الرئيس والمهام المسندة إليه في شؤون الدولة ،وترك له التصرف في بعض الشؤون (في البلد والفحص) مع إبقاء النعمة عليه (١) .

ثالثاً : أن الرئيس محمد كان فيما يبدو يخطط للأستئثار بالسلطة إما مباشرة بعد خلع إسماعيل أوبصورة غير مباشرة بحيث يصبح صاحب الأمر والتدبير في الدولة فبعد أن نجحت الثورة على محمد واستقر الأمر في يد إسماعيل عمل الرئيس محمد على إفساد سيرة إسماعيل من ناحية وتشويه سمعته لدى الناس من ناحية أخرى ، فمن جانب ساعده على اللذات وأغراه (بالخبث ، وشغله بالعهر ، وقتله بالشهوات المنحرفة) ، ومن جانب آخر (جعله يتبرأ من دنيته وينفق بين الناس من سلع اغتيابه ، ويرى الجماهير الإنكار لصنيعه ، ويزين لهم الاستعاضة منه .) (٢) .

رابعاً : أن والدة إسماعيل كانت على الأرجح ترغب في أن يكون الملك لولدها وبخاصة أنها كانت أثيرة عند زوجها السلطان يوسف وكذلك كان ابنها على نحو ما بينا آنفا ، إلى جانب أن يوسف كان فيما يبدو قد رشّح إبنه إسماعيل للحكم أوفي الأقل تحدث بهذا الترشيح .

خامساً : ما يبدو من حقد إسماعيل على أخيه محمد بسبب زواج محمد من ابنة عم

---

(١) الإحاطة : ١ /٥٢٤ .

(٢) الإحاطة : ١/ ٥٢٥ . وقد فسد ما بين إسماعيل ومحمد بن إسماعيل وانتهى الأمر بقتل إسماعيل واستيلاء محمد على الحكم (اللمحة :١٢٨) .

لهما كان إسماعيل يريدها لنفسه ، حيث نرى إسماعيل يعمل على تطليقها من زوجها محمد والزواج بها وذلك بعد نجاح الثورة واستيلاء إسماعيل على الحكم (١) .

ولما ذكرناه وما سنذكره هنا فإننالانستطيع مجاراة عبده محمد عواجي فيما ذهب إليه من أن يوسف قد عين (إسماعيل ولياًللعهد ولكنه لم يابث أن عدل عن رأيه في أيامه الأخيرة وأوصى بالعهد لأبنه محمد .) (٢) فقد أحال عبده محمد في هذا الخبر إلى ابن خلدون (العبر ١٧٤/٧)، ومع أن الاحالة فيها سهو (٣) إلاأن ما ذكره ابن خلدون لا يفيد المعنى الذي ذهب اليه عبده محمد بل هو يؤيد ما رجحناه ، فابن خلدون يقول : (وكان قد رشّح إبنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محبته فلما عدلوا بالأمر عنه حجبوه ببعض قصورهم .) (٤) وواضح أن كلام ابن خلدون يجعل العدول ـ إن كان أصلاً قد تعدى تعيين إسماعيل مرحلة التفكير فيه فحسب ـ من فعل أناس غير يوسف . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فلو كان يوسف قد أوصى بالعهد حقيقة لمحمدلكان ابن الخطيب أول البادرين إلى تسجيل هذا وترديده لعلاقته المعروفة بمحمد ،ومن ناحية ثالثة فإن يوسف لم يكن له من الناحية الشكلية (أيام أخيرة) كان يحسن هو بأنها كذلك لأنه اغتيال ولم يبلغ الثامنة والثلاثين من العمر . وتأسيساًعلى هذا لامحل لقول عبده محمد (وقداستأثرت مريم أم إسماعيل بمال

(١) انظر نفاضة الجراب :ص ١١٤ .

(٢) الخلافات السياسية : ص ١٥٨ .

(٣) وقد رجعنا إلى الطبعة التي اعتمد عليها من كتاب العبر :

(طبعة مؤسسة جمال للطباعة / بيروت / ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م) .

(٤) العبر : ٣٦٣/٧ .

كثير من خزانة زوجها السلطان الراحل الذي استرضاها به عندما عزل إبنها إسماعيل عن ولاية العهد) (١) .

فقد كان المال لزوجها واستولت عليه بعد وفاته ولو كان المال لها فلا محل للقول بأنها (أستأثرت به) ، ولو كان زوجها استرضاها ورضيت فلربما تغير مجرى تاريخ تلك الحقبة من تاريخ دولة الإسلام في الأندلس ، وهذا فضلاًعن أن فكرة الأسترضاء التي توهمها عبده محمد ليس بين أيدينا من المصادر ما يشير إليها .

وهكذا نرى أن هناك مجموعة من الأسباب تظافرت وتعمقت في نفوس مخططي الثورة مع ما وجدوه من إستجابة لدى جماعة من الناس من استعداد للاشتراك في الثورة لأسباب خاصة بهم على نحو ما سيتبين لنا عند الحديث عن التخطيط للثورة .

التخطيط للثورة :

تولى الرئيس محمد بن إسماعيل ومريم والدة إسماعيل الجزء الأكبر في التخطيط للثورة والعمل على نجاحها . فقد وفرت مريم المال وأعمل الرئيس فكره واتصالاته لوضع الخطة ومتابعة تنفيذها . وكان التخطيط يتم في منزل الرئيس لأنه كان ممنوعاًمن دخول القلعة بأمر من السلطان محمد بن يوسف كما ذكرنا . ولذلك فقد أخذت مريم تترددعلى منزل الرئيس وتلتقي هناك به لإتمام ما عقدا العزم عليه .ولم يكن في ترددها على منزله ما يثير الريبة إذ كانت تتظاهر بأن غرضها الوحيد من هذا التردد هو زيارة أبنتها زوجة الرئيس محمد . ولا نعلم متى بدأ التخطيط للثورة ولكننا نرجح أن يكون خلال عامي ٧٥٩-٧٦٠هـ (١٣٥٨-١٣٥٩م) وذلك استنتاجاًمن

(١) العبر : ص١٥٨ .

الإشارات المتعلقة بأنواع المشاركين في الانقلاب ـ كما سنرى ـ إذ أن منهم عدداً ملحوظاًممن نقمواعلى السلطان محمد بن يوسف بسبب إقصائهم عن وظائفهم أو تنزيل رتبهم الوظيفية أو تحجيم سلطاتهم أو نحو ذلك ، ومنهم الرئيس محمد بن إسماعيل نفسه كما رأينا . وتكوين مثل هذه الجماعة من الموتورين يستغرق بعض الوقت فلعله بذلك قد استغرق السنوات الأولى من حكم محمد بن يوسف ويبدو أن التخطيط للثورة كان دقيقاً وشاملاً وإن لم يكن خالياًمن نقص ، إذيظهر لنا من تجميع الأخبار والاشارات المتعددة أن الخطة قد تكفلت بجوانب التوقيت وخط سير الهجوم على مقر الحكم وتكوين المهاجين وتوزيع الأدوار عليهم على حد سواء .

أ ـ التوقيت :

إختار مخططو الثورة يوماً ووقتاً يبدو أنهما كانا مناسبين للحديث الهام ، فقد قرروا القيام بالثورة في الثلث الأخير من ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٩/٨/٢٢م) (١) . وعلى الأرجح فإن اختيار شهر رمضان لأنه شهر عبادة وصوم وطاعة وهولذلك أبعد ما يكون في نظر عامة المسلمين عن أن يكون توقيتاً لشق عصا الطاعة على السلطان الذي استقر حكمه ببيعة مكتوبة اتفق عليها جل أهل الحل والعقد من أهل غرناطة عاصمة الملك ومركز تدبيره ،وأنست الأمة في الأندلس بحسن إدارته شؤون الدولة على الأرجح . ووقع تحديد أواخر الشهر لما تشمله تلك الليالي المباركة من المعاني التي أشرنا إليها وإلى كون الدولة بأجهزتها الأدارية ورعاياهافي أجازة عيد الفطر فتكون الرقابة متراخية

(١) اللمحة : ص ١٢١ ، والإحاطة : ٥٢٤/١

والأذهان منصرفة عن توقع حدوث مثل هذه الأحداث الجسيمة . وتم اختيار الساعات الأخيرة من الليل ليكون جل الناس أبعد ما يكونون عن القدرة على التجمع والتنادي لحمل السلاح فهم بين نائم ومتعبد ومتحول عن مقر إقامته المعتاد الى مقر آخر للراحة والاستجمام في استقبال عيد الفطر ،كما أن الليل أستر ما يكون للحركة وغير هذه من العوامل التي أعانت على إتمام المراد .

ب ـ المشاركون في التنفيذ :

يظهر لنا من استقراء الأخبار المتعلقة بهذا الجانب أن الفتنة قد حظيت بتعاون أصناف شتى من الناس نستطيع أن نتبين منهم هذه الطبقات :

ـ الموتورين : ونقصد بهؤلاء أولئك الذين في نفوسهم حقد على الدولة وحكامها لأسباب مختلفة كمن حطت السلطة من رتبته الوظيفية ، أولم تحقق له مطالباً تعلقت به نفسه ، أو ما طلته في تحقيق له ، أو عزلته عن ولاية كان عليها ، وغير هذه الأسباب من أمثالها (١) .

ـ السوقة : وهم من يشير إليهم ابن الخطيب بقوله (المساعير ...من كسرة الأغلاق ، وقتلة الزقاق ، ومختلسي البضائع ، ومخيفي السابلة) (٢) .

ـ بعض العاملين في القلعة وسكانها : ونقصد بهؤلاء من كانوا يشاركون المتآمرين في آرائهم ويميلون معهم في الاتجاه الذي توجهوا إليه (٣) .

وقد جمعت هؤلاء القوم على اختلاف أمزجتهم ومشاربهم أهداف مختلفة

(١) الإحاطة : ١ /٥٢٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) انظر الإحاطة : ٣٩٩/١ .

كاختلافهم فمنها الأطماع السياسية ومنها الأغراء بالوظائف (١) ومنها الإغراء بالأموال إضافة الى ما كان في نفوسهم من أسباب خاصة أشرنا إليها .

وتمكن قادة الانقلاب في نهاية الأمر من تجميع ما يزيد عن مائة رجل (٢) وقد تم توفير ما يحتا جونه في تنفيذ الانقلاب كما سيتضح لنا لاحقاً .

جـ ـ خطة الهجوم على مقر الحكم :

تقع القلعة وهي مقر الحكم على نهر هداره (٣) ، وهي محصنة بسور رفيع ويقع جزء من سورها بمحاذاة مجرى الماء في النهر . وقد تهدم الجزء الأعلى من سورها في هذه المنطقة المحاذية للنهر ، وكانت تجري فيه أعمال لترميمه وإصلاح ما تهدم منه إلاأن هذه الأعمال لم تكن قد اكتملت في الوقت الذي وقع فيه الانقلاب ، وبقي هذا الجزء من السور منخفض الارتفاع عن بقية السور . وكان مخططو الانقلاب على علم بحال هذا القسم من السور ـ بل ربما كان لهم يد في تأخير إكمال العمل في ترميمه ورفعه ـ فأدخلوا هذا في حساباتهم وجعلوه نقطة التسور إلى القلعة .

وكانت خطة الهجوم على القلعة قد رسمت بحيث يتم تجميع المها جمين الذين ناهز

(١) بعد نجاح الانقلاب أسندت ـ على سبيل المثال ـ إلى إبراهيم بن أبي الفتح الشرطة العليا وولي المورروري الحجابة لإسماعيل (نفاضة الجراب :١٠٥ ،واللمحة :١٢٨) .

(٢) اللمحة : ١٢٠ ،والإحاطة :١ /٣٩٩ .

(٣) هذا النهر هو بالإسبانية (E Darro)

ويخترق مدينة غرناطة وهو صغير من نهر شنيل :

(الإحاطة : ٥٢٤/١ هامش ٥) .

عددهم المائة من ناحية النهر لأن ذلك هو الأقرب إلى نقطة الهجوم على القلعة وربما لأن تضاريس تلك الجهة تمكنهم من أن يستمر أمرهم خفياً ثم التسلل ببطن النهر إلى أن يلتصقوا بجناح السور الصاعد (الراكبة قوسه جرية النهر) والصعود مساوقين جناحه المتصل بسور القلعة حتى بلوغ الجزء المنخفض من السور الذي كان ينتظر الإصلاح ومن ثم استعمال السلم الذي سبق إعداده للصعود على السور عند هذه النقطة ،والدخول إلى القلعة والتجمع ثم الانقسام إلى فرقتين : إحداهما للقضاء على نائب الملك الحاجب رضوان النصري وعلى الملك محمد . وأماالثانية فلإخراج إسماعيل وعرضه على الناس في موكب ملكي تحف به جمهرة من المحاربين وغيرهم حتى يدرك الناس أنه هو الذي أصبح ملكاً ثم أخذ البيعة له لتستقر بعد ذلك الأمور لصالح السلطان الجديد (١) .

وقد أعدو للهجوم عدته من حراب وآلات لكسر الأبواب والأقفال ومشاعل بالإضافة إلى ما تشتمل عليه خطة الهجوم من فتح خزائن السلاح والاستيلاء عليه وعلى طبول الملك وغيرها واستعمالها استعمالاً تكمل به الأبهة الملكية ومظهر الحكم المستقر (٢) .

قيام الثورة :

قبيل الثلث الأخير من الليلة المحددة للقيام بالانقلاب كان شيء يبدو طبيعياً ولم يكن أكثر سكان غرناطة ينتظرون إلا نهاية هادئة لشهر رمضان وعيداً يكمل فرحتهم

(١) انظر الإحاطة : ٣٩٨/١ ت ٣٩٩ و٥٢٤ و٢ /٢٦ ـ ٢٧ ، واللمحة : ١٢٠ .

(٢) الإحاطة : ١/ ٤٠٠ .

بإتمام الصوم ، وكبار المسؤولين في الدولة كانوا على ما يبدو قد رتبوا أمورهم لقضاء تلك الأيام على ما تعودوا عليه في سابق أيامهم ، فالسلطان محمد كان في المنتجع السلطاني المسمى (جنة العريف EL Generalife) (١) ، وكان حاجبه ونائبه رضوان في بيته في القلعة وبين أولاده (٢) وكان وزيره وكاتبه ابن الخطيب قد انتقل ومعه أسرته للاقامة الموسمية في الجنة المعروفة بإسمه إذ نراه يقول إنني كنت (ساكناً بجنتي المنسوبة إلي من الحضرة ، منتقلاً إليها بجملتي ، عادة المترفين إذ ذاك من مثلي) (٣) . ولعل الحراسة في تلك الليلة ـ وربما غيرها ـ لم تكن كافية حيث نجد ابن الخطيب يذكر (أن شيخ الدولة القايدأبا النعيم ـ رحمه الله ـ أضاع الحزم ، وإذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم) فقد أمن جانب القصر وتهاون في ذلك (٤) وقد كانت المنطقة المتهدمة من سور القلعة في حراسة حارس واحد فقط . وكان أحد الأبواب الداخلية الرئيسة ـ وكان يفترض أن يكون في العادة موصداً ـ مفتوحاًوذلك (للثقة بما قبله) .

(١) هي حدائق فائقة الجمال والتنسيق في ربوة تقع على شمال شرق قلعة الحمراء وبأعلى الربوة قصر وقد ذكر ابن الخطيب أنها كانت لصق دار الأمير وأنها (المثل المضروب في الظل الممدود والماء المسكوب والنسيم البليل ، يفصل بينهما وبين معقل الملك السور المنيع والخندق المصنوع) ـ اللمحة :١٢١ .

(٢) أثنى عليه ابن الخطيب ثناءاً واسعاً وقال عنه إنه الحاجب المعظم حسنة الدولة النصرية ، وكان رومي الأصل .انظر ترجمته في الإحاطة :٥٠٦/١ .

(٣) الإحاطة :٢/ ٢٧ .

(٤) الإحاطة :٢/ ٢٦ .

وقد بدأ المهاجمون هجومهم وفق الخطة الموضوعة يقودهم محمد بن إسماعيل فوصلوا منطقة الصعود إلى القلعة ووضعوا السلم الذي أعدوه لهذه المهمة فتسوروا سور القلعة ودافع بعض محاربيهم بعضاً. في استباق أدراجه) (١) . ووجدوا الحارس الوحيد في ذلك المكان وكبسوه (بما اقتضى صماته) ثم نزلوا إلى القلعة (٢) .

وقصدوا الباب المفتوح ودخلوا منه ،ثم عمدوا إلى الترويع والتهويل لإعطاء عنصر المباغتة الذي حرصوا عليه أكبر قدر من التأثير النفسي على من في القلعة فاستخدموا المشاعل والصراخ وملأوا القلعة (لجباًولغطاًوصراخاًوهولاً وتنويراً ... وانضاف إليهم إخوان رأيهم من حراسها وسكانها) (٣) . ويبدو أن وقع المفاجأة كان شديداً على الناس فسقط في أيديهم وذهلوا (واقتصر كل على النظر لنفسه) (٤) . وانقسم المهجمون إلى طائفتين : أحدهما اتجهت إلى دار رضوان وكانت أبوابها موصدة بإحكام فعالجتها مدة طويلة حتى تمكنت من كسرها ودخلت الدار فوجدت رضوان نائماًفأجهزت عليه وقتلته بين أهله وأولاده وانتهبت ما وجدته في الدار (٥) . واتجهت الطائفة الثانية يقودها محمد بن إسماعيل إلى المقر الذي كان

(١) الإحاطة : ٥٢٤/١ .

(٢) اللمحة : ١٢١ .

(٣) الإحاطة : ٣٩٩/١)

(٤) انظر الإحاطة : ٣٩٩/١ و ٢٦/٢ ،واللمحة : ١٢١ .

(٥) اللمحة : ١٢١ .

إسماعيل محتجزاً فيه فأخرجته وسارت به في موكب يصفه ابن الخطيب بشيء من التفصيل لا يخلو من روح أصحاب الرسوم المضحكة (الكاريكاتير) فنجده يقول : (فإخرجوه وأركبوه على فرس ، راعد الفرائص ، منتقع اللون ، مختلط القول ، تحف به داياته بين مولولة ، وتافلة موعوذة ، قد جعلوا به سيفاً مصلتاً على سبيل اللواعب بالنصول والرواقص في مدارج اللهو) (١) . وهذا الوصف ينسجم مع وصف ابن الخطيب لشخصية إسماعيل من كونه كان صغير السن (خنثاً مضعوفاً لمكان الاعتقال ومجاوزة النساء ، منحطاً في درك اللذة ، قاصر الهمة ، على حياء ودماثة) (٢) ، وينسجم مع رغبة ابن الخطيب في إظهار الموكب على أنه مفتعل وأنه أشبه بموكب من مواكب الملاهي ،وهذا يجد صدى في نفس ابن الخطيب الذي كان هو نفسه أحد المتضررين من الثورة .

وفي أثناء الأحداث قام الثوار باستخراج طبول الملك وقرعوها ، ثم قادوا الجياد واتجهو ا إلى خزائن الأسلحة وتسلحوا بها وأصبح زمام الأمور في أيديهم .

وكما ذكرنا فقد كان السلطان محمد بن يوسف في جنة العريف فسمع الجلبة والضوضاء وأصوات الطبول وهب للدخول الى القلعة ولكنه أدرك على الفور أنه قد تم الاستيلاء عليها فقد (قذفته الحراب ورشقته السهام فرجع أدراجه) (٣) ، ولم يكن أمامه إلا النجاة بنفسه ، وقد تيسر له ذلك لوجود فرس كان مرتبطاً عنده فركبه

(١) الإحاطة :١/٣٩٩ ـ ٤٠٠ .

(٢) اللمحة :١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٣) اللمحة :١٢١ .

واتجه فاراً إلى مدينة وادي آش شمال شرق غرناطة (١) ومعه نفر ممن كانوا معه في المنتزه ، وبحث الثوار عنه حيث كان فلم يجدوه وحاولوا اللحاق به فلم يدركوه (٢) . وفوجيء والي وادي آش علي بن بدر الدين بن رحو بدخوله المدينة صباحاً ، وهبت وادي آش للوقوف معه والدفاع عنه ضد الحشود التي أرسلتها السلطة الجديدة في غرناطة للقضاء عليه فلم تفلح في ذلك (٣) .

ونقف هنا نتساءل عن أحد مراكز القوة في مملكة محمد بن يوسف وهو شيخ الغزاة المغاربة حينئذ يحي بن عمر رحو بن بن عبد ا لله بن عبدالحق (٤) . وموقف جزء هام من مملكته وهي المرية (٥) ، وموقف حليفه بيدروالأول (Pedro I) ملك قشتاله .

تعتبر وظيفة شيخ الغزاة وظيفة هامة في مملكة غرناطة وقد كان ابن رحو هذا يرأس

(١) وادي آش (Guadix)

مدينة أندلسية قريبة من غرناطة كبيرة خطيرة حولها المياه والأنهار وهي كثيرة الفواكه والثمار وغيرها (الروض المعطار :ص ٦٠٤) .

(٢) الإحاطة :٢/ ٢٧ .

(٣) الإحاطة :٢/ ٢٧، ٣٨

واللمحة :١٢١ .

(٤) انظر في ترجمته : الإحاطة :٤/ ٣٦٥ .

(٥) المرية : (Almeria)

تقع على الساحل الجنوبي الشرقي من أسبانيا ، وكانت مدينة كبيرة وكانت أحد بابي شرق الأندلس باعتبارها ميناءاً تجارياً وحربياً واشتهرت بصناعة الوشي والديباج (معجم البلدان : ٥/ ١١٩) .

الغزاة المغاربة وهم فرسان مدربون تدريباً مميزاً وكانوا متطوعين في جيش غرناطة (١) . وعلى الأرجح فقد وقف ابن رحو موقفاً سلبياً من محمد بن يوسف في محنته .على أن ابن الخطيب يذكر أن ابن رحو استمر في خدمة إسماعيل بعد استيلائه على الحكم (وانقاد له وحطب في حبله وأقصر عن نصرة أخيه محمد) (٢) . ويقول في مكان آخر أنه أصبح يوم الكائنة على محمد في قياد إسماعيل (ونصح له فأمر له وضاعف بره) (٣) . ويفهم من هذا الكلام أن ابن رحو وقف مع إسماعيل في مواجهة أخيه محمد ، إلا أننا نعتقد أنه اختارالحياد فوقف عند قيام الثورة موقفاً سلبياً كما قلنا بدليل أن محمداً عندما استعاد ملكه أعاد إلى ابن رحو رتبته (إلى أحسن أحوالها من الجاه والحظوة وانطلاق اليد) (٤) . ولكن مجرد وقوفه موقف المحايد في الصراع كان سبباً كافياً عند محمد يجعله يحمل في نفسه عليه ، فابن الخطيب يشير إلى أن السلطان محمداً كان منطوياً له على ضغن لأمور منها

(١) انظر في نظام الغزاة المغاربة بغرناطة : فترة مضطربة : ص ـ ٤٨ .
ويذهب العبادي إلى أن يحي بن رحو كان من أنصار محمد ولذلك عزله إسماعيل وعين مكانه إدريس بن عثمان بن عبد الحق . وهذا عكس ما يقرره ابن الخطيب .
وأما إدريس فقد أصبح شيخاً للغزاة عندما تغلب محمد بن إسماعيل (البرميخو) على الأمر ـ انظر الإحاطة : ١ /٥٢٩ .

(٢) اللمحة :١٢٨ .

(٣) الإحاطة : ١ /٤٠٣ .

(٤) الإحاطة : ٤ /٣٧١ .

(قعوده عنه وهو أحوج ماكان لنصره ،وانزحاله عنه في الشدة) (١) يوم قيام الثورة عليه .ولهذا فما لبث محمد أن أمر بالقبض عليه هو وذويه وسجنهم ثم نفيهم من غرناطة (٢) . ولا نعلم سبب وقوف ابن رحو من محمد هذا الموقف ولعله لو تدخل هو والغزاة الذين تحت إمرته إلى جانب محمد لتغير مجرى الأحداث ،فحين وقف شيخ الغزاة الجديد عثمان بن رحو إلى جانب محمد في محاولة الانقلاب التي قام بها علي بن أحمد بن نصر في غرة ذي الحجة سنة ٧٦٧هـ (أغسطس /١٣٦٦م) حسم الأمر لصالح محمد (٣) .

وأما المرية فقد تنكرت للسلطان محمد وكان قد أمل فيها آمالاً عريضة لكونها قوية التحصين كثيرة الارزاق والعدة .وقد كتب إلى واليها يطلب العون منه والوقوف معه في محنته ولكنه رد عليه (أسوأ الرد وسجن رسوله) (٤) .ولم يكن بيدرو الأول ذا غناء لمحمد في تلك الظروف المظلمة .فقد كانت بين الرجلين معاهدات وعلاقات حسنة استمرت وتجددت بعد استعادة محمد لدولته فيما بعد (٥) ، ولكن كان بيدرو في حال لا يستطيع معه مد يد العون لمحمد لأنه كان في حرب مع مملكة أراجوان ومع أخيه ولذلك نجد ابن الخطيب يقول إن محمداًقد (راسل ملك الروم فلم يجد عنده من

(١) الإحاطة :٣٧١/٤ .ومعنى (انزحاله) تباعده وتنحيه (لسان العرب :٣٠٢/١١) .

(٢) الإحاطة :٣٧١/٤ .وكان ذلك في رمضان سنة ٧٦٤ه (أغسطس ١٣٦٣م) .

(٣) انظر الإحاطة :٦٥/٢ و ٧٤ - ٧٧ .

(٤) انظر الإحاطة :٢ /٤٨ .

(٥) انظر الإحاطة :٢ /٤٢،٢٢ .

معول) (١) .

وهكذا شاء الله أن تكون هذه العوامل الثلاثة (شيخ الغزاة والمرية وبيدرو الأول) غير ذات نفع للسلطان المخلوع ،ولعها لو كانت على غير ذلك لتغير مجرى الأحداث ، و لله في ذلك حكمة .ولذلك لم يجد محمد بداً ـ بعد أن شددت غرناطة الحصار على وادي آش وقلت المؤن ـ من أن يخاطب سلطان المغرب أبا سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني (٢) طالباً الجوء إليه فاستجاب أبو سالم لطلبه وبادر بإرسال أبي القاسم الشريف التلمساني للتفاوض مع إسماعيل في السماح لمحمد إلى المغرب وبإطلاق سراح وزيره وكاتبه ابن الخطيب والسماح له باللحاق بسلطانه ، وقد تم ذلك وتحرك محمد ومن معه إلى المغرب في ٧٦٠/١٢/١١هـ (١٣٥٩/١١/٢م) سالكاً الطريق الغربي من وادي آش إلى مربلة (٣) ، وعبروا البحر إلى سبتة (٤)صباح يوم

(١) انظر أعمال الأعمال : ص ٣١٠ ، واللمحة :ص ١٢١ ،والإحاطة :٥٢٥/١،والخلافات السياسية :ص١٦١ .

(٢) انظر في فترة حكمه ثم قتله :العبر :٣٦٠/٧ ـ ٣٧٢ .

(٣) مربلة :(Marbella)كانت مدينة صغيرة مسورة .وتقع على بعد ستين كيلو متراً إلى الغرب من مدينة مالقه (Malaga) (الروض المعطار :ص ٥٣٤) .وقد ذكر ابن الخطيب ما سماه المآتم التي كان يقيمها سكان المدن التي مر بها محمد (خمس مدن) حسرة على نزوحه من الأندلس :

(الإحاطة :٢٨/٢) .

(٤) سبتة : مدينة كبيرة في المغرب على ساحل البحر الأبيض المتوسط (الخليج الرومي المعروف بالزقاق)وهي تقابل الجزيرة الخضراء على الساحل الجنوبي للأندلس .

(الروض المعطار :ص٣٠٣) .

٧٦٠/١٢/٢٤ هـ (١٣٥٩/١١/١٥م)،ثم أنتقلو منها إلى مدينة فاس (١) فوصلوها يوم الخميس ٧٦١/١/٦هـ (١٣٥٩/١١/٢٧م) . ويقدم لنا ابن الخطيب وصفاً حسناًلاحتفال وداع محمد وصحبه في وادي آش وللاحتفال الذي أقامه أبو سالم المريني لاستقبالهم (٢) .

وهكذا أسدل الستار على فصول واحدة من المآسي في التاريخ الإسلامي واستقر المطاف بمحمد بن يوسف في المغرب ولكن إلى حين .

الآثار المترتبة على الثورة :

لقد كان لهذه الفتنة البائسة آثار شائنة اضيفت إلى تلك التي توالت على دولة الإسلام في الأندلس منذ بدأ تفكك الدولة الواحدة وانقسامها إلى دويلات من الطوائف عند نهاية القرن الرابع الهجري (بداية القرن الحادي عشر الميلادي) ، إلا أن وقوع مثل هذه الفتن في مملكة غرناطة يعتبر ذا أثر بالغ باعتبارها القاعدة الأخيرة للدولة الإسلامية في أسبانيا ، ولأنها تضيف مصاعب جديدة إلى ما مني به جنوب الدولة من تحمل الآثار السالبة لتقهقر نفوذ المسلمين المتلاحق في شمال الأندلس ووسطها وما

(١) مدينة كبيرة في بر المغرب مشهورة قديماً وحديثاً ،اشتهرت بمياهها وصناعة بعض أنواع النسيج (معجم البلدان :٢٣٠/٤) .وقد ذكر عبده محمد أن محمد بن يوسف أبحر من سبتةفي الرابع والعشرين من ذي الحجة ووصل إلى فاس في يوم الخميس ٧٦١/١/٦ه (الخلافات السياسية :ص ١٦٢) والصحيح ماذكرناه ،كما أنه لايوجد بحر بين سبتة وفاس .

(٢) إنظر في تفاصيل أحداث وادي آش وما تلاها :الإحاطة :٢ /٢٧ ــ ٢٩ ،واللمحة :١٢١ ،وأعمال الأعلام :٣١١ ،والعبر :٣٦٣/٧ - ٣٦٧ و٣٩٥ .ويلاحظ أن ابن خلدون ذكر أن عبور محمد وصحبه إلى المغرب كان في شهر ذي القعدة ،وهذا سهو .

صاحب ضحايا ذلك التقهقر من مشاعر الإحباط أحياناً ومشاعر اليأس من مستقبل دولة الإسلام هناك أحياناً أخرى ،ولأنها أيضا كانت تحاول الموازنة بين قوى سياسية ثلاث (مملكة أرجوان ، ومملكة قشتاله ،ودول المغرب) في سبيل بقائها وتعاني من آثار التقلبات السياسية والاقتصادية فيها .ولقد كان من أهم الآثار السيئة للثورة التي حاولنا شرح أسبابها ومجرياتها ما نوجز الحديث فيه وهو :

أولا : هجرة عدد ملحوظ من الشخصيات البارزة إلى المغرب من أمراء وعلماء وأدباء وعسكريين وغيرهم ،وقد ذكر ابن الخطيب عدداً من هؤلاء ومنهم ابن الخطيب نفسه (١) ، ولعل خير ما يصور كثرة من خرجوا حينذاك ما ورد في حديث ابن الخطيب وهو يصف مراسيم توديع محمد بن يوسف في فاس وهو يبدأ مسيرته للعودة إلى غرناطة يوم السبت ١٧/١٠/٧٦٢هـ (١٩/٨/١٣٦١م) إذ نجده يقول متحدثاًعن السلطان أبي سالم بعد توديعه لمحمد : (ثم انصرف عنه وقد التف عليه كل من جلى على الأندلس من لدن الكائنة الواقعة بها في جملة كثيفة) (٢) .

ثانيا :كثرة الانقلابات والجرأة على السلطة فقد قامت خلال السنوات السبع التالية لهذه الثورة ثلاثة انقلابات رئيسية (محمد بن إسماعيل في وجه إسماعيل بن يوسف ـ محمد بن يوسف ومحمد بن إسماعيل ـ علي بن نصر ضد محمد بن يوسف) .

ثالثا : مزيد من التدخل السافر في شئون مملكة غرناطة ليس فقط من سلاطين المغرب بل من المملكتين النصرانيتين في أسبانيا (قشتالة وأرجوان)حتى وصل الأمر إلى

(١) انظر نفاضة الجراب :ص ١١٤ ومابعدها .

(٢) نفاضة الجراب :ص ١٨٥ .

التدخل لاستجلاب محمد بن يوسف من المغرب وتنصيبه مرة أخرى سلطاناً على غرناطة (١) .

رابعا : السلبية التي يبدو أنها خيمت على سكان عاصمة غرناطة ـ وربما غيرها ـ حيث أصبحوا يسايرون كل من هجم على كرسي السلطة ، ولم يسجل لنا المؤرخين وقوفهم موقفاً فاعلاً إزاء بعض التطورات التي مرت ، وحتى عندما كانت سياسة محمد بن إسماعيل تسوؤهم حين فرض عليهم الضرائب واستغل بيت المال وساءت سيرته (٢) .

خامساً : تزايد الشعور بأن الدولة الإسلامية ماضية في طريق الرحيل عن الأندلس فالآفات تنخرها من خارجها ومن داخلها وحصونها مهددة من الخارج مخترقة من الداخل ، وتعاظم إحساس الناس بأن الاضطراب والقلق أضبح من السمات التي تلف حياة الناس ،ولعل ابن الخطيب بعد أن تقدم به السن وحنكتة السنون والتجارب وخبر ما بقي للمسلمين في الأندلس من رقعة أرض ونفوذ سلطان لعله يصدر عن ذلك الشعور حين يكتب لأولاده وصيته الشاملة البليغة ويقول فيها : (ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد ، الذي لايصلح لغي الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار فيصبح عرضة للمزلة والاحتقار ، وساعياً بنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الانتقال ، أمام النوب الثقال)(٣) . وقد أجمل وأكمل .

(١) انظر على سبيل المثال نفاضة الجراب :ص ١٨٤ .

(٢) انظر الإحاطة : ٥٢٦/١ ونفاضة الجراب :ص ١٨٣ .

(٣) نفح الطيب : ١٠ /٢٦٣ .

مصادر البحث ومراجعه

- الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي /القاهرة ١٣٩٣هـ - ١٣٩٧هـ - (١٩٧٣م - ١٩٧٧م).

- أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام : لسان الدين ابن الخطيب تحقيق ليفي بروفسال - دار المكشوف /بيروت - الطبعة الثانية ١٩٥٦م .

- الخلافات السياسية في الدولة النصرية ودورها في سقوط الأندلس :عبده بن محمد عواجي عبد القهار - رسالة ماجستير - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

- الروض المعطار في خبر الأقطار :محمد بن عبد المنعم الحميري - تحقيق إحسان عباس - مكتبة لبنان /بيروت ١٩٧٥م .

- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب :لسان الدين بن الخطيب - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي / القاهرة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م (المجلد الأول) .

- العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) : عبد الرحمن بن خلدون ـ دار الكتب العلمية / بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٢م (المجلد السابع)

- فترة مضطربة في تاريخ غرناطة :مختار العبادي ـ مقال ـ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ـ المجلد السابع ١٩٥٩م .

- لسان العرب : لجمال الدين محمد بن منظور ـ دار صادر ودار بيروت / بيروت /١٣٧٤هـ /١٩٥٥م (المجلد الحادي عشر)

- اللمحة البدرية في الدولة النصرية : لسان الدين بن الخطيب ـ لجنة إحياء التراث العربي بدار الأفاق الجديدة / بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

- معجم البلدان : لشهاب الدين ياقوت الحموي ـ دار صادر ودار بيروت /بيروت ١٤٠٠هـ /١٩٨٤م المجلدان الرابع والخامس) .

- نزهة البصائر والأبصار : علي بن عبد الله بن محمد النباهي ـ مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة الملك سعود بالرياض تحت رقم ٤٠٧ /٣ .

- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب : لسان الدين بن الخطيب - تحقيق أحمد مختار العبادي - دار الشؤون الثقافية العامة (أفاق عربية) بغداد - دار النشر المغربية ، بدون تاريخ .

- نفح الطيب من غصن الأندلس الطيب : أحمد بن محمد المقري - تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي - دار الفكر / بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م (المجلدات الأول والرابع والثامن والعاشر) .